مقالات في التاريخ والفكر

الجنوب الغربي الجزائري في عصور ما قبل التاريخ
من خلال قبيلتي الجيتول وزناتة

د/ سيرات بوحفص
المركز الجامعي صالحي أحمد النعامة

الملخص

يتضمن هذا البحث دراسة تاريخية لمنطقة الجنوب الغربي الجزائري خاصة منطقة جبال القصور في مرحلة ما قبل التاريخ، والتي تبين أنّها منطقة عريقة تشهد على ذلك النقوش الصخرية، والأدوات الأثرية. دراسة تكشف عن اللغة التي كان مستعملة، والشعوب التي سكنت المنطقة بدأً من قبائل الجيتول إلى القبائل الأمازيغية الزناتية.

Resumé:

Cette recherche comprend une étude historique de la région algérienne du sud-ouest, en particulier la région montagneuse préhistorique des palais, qui s'est révélée être une région ancienne témoignant des inscriptions rocheuses et des artefacts archéologiques. Une étude révèle la langue utilisée et les peuples qui habitaient la région ont commencé à partir des tribus Jethul au Tribus amazighe

مقدمة:

عرفت منطقة الجنوب الغربي الجزائري الواقعة غرب الأطلس الصحراوي فترات تاريخية متعاقبة مما يصعّب مهمة معرفتها، هذه المنطقة التي شهدت نزوح قبائل عديدة استطاعت أن تنصهر مع بعضها البعض، شكلت تجمعات سكانية، وكما تثبت الوقائع التاريخية أنّ الفترات التي

مرّت بها المنطقة تراوحت بين المدّ والجزر، فهي فترات انتابها استقرار، وأخرى كانت مليئة بالفتن، والحروب. فماهي أهمّ الأحداث التاريخية التي عرفتها هذه المنطقة ؟

لقد تضاربت النظريات حول أصول وأعراق السكان الذين عاشوا في منطقة القصور.لكن من الواضح أن أعراقا مختلفة. أتت من هجرات متعددة انصهرت وكونت مع مرور الزمن سلالة بربرية.

إنّ الرسومات الصخرية والآثار الموجودة في المنطقة تشهد على أنّ أصحابها كانوا صيادين أشبه بالرحّل يقطنون أكواخا حجرية، أو كهوفا جبلية. ويعود أقدم تاريخ لهذه الرسوم الصخرية إلى الألف السادسة قبل الميلاد، وهي تمتد إلى جنوب سلسلة الأطلس الصحراوي مما يدلّ على تمركز بشري كبير، عرفته خلال العصر الحجري الحديث، وهذه النقوش والرسومات الصخرية لا تزال الدراسات والأبحاث قائمة حولها." لقد كان للحملات العسكرية الفرنسية الأثر البالغ في الكشف عن هذه الرسومات، والنقوش الصخرية ...إنّ الاكتشافات لم تكن إلاّ نتيجة لتوغل الجيوش الفرنسية لمنطقة غرب وهران".[1]

هذا اعتقاد FELIX JACQUOT الذي يرجع له الفضل في أنّه الأوّل الذي اكتشف هذه المحطات الصخرية خاصة محطة تيوت. لكن نجد أنّ محمد الطاهر العدواني له نظرة مغايرة تماما، إذ يرجع الفضل في الكشف عن هذه الآثار لسكان المنطقة، ذلك لأنّ "الرسومات الصخرية المنتشرة عبر جبال ومرتفعات وشعاب الصحراء الكبرى قد عرفت محاولات عديدة لقراءتها وتقديم تفسيرات تاريخية و حضارية لها من طرف الفرنسيين الذين اهتموا بها ولا نقول اكتشفوها كما ينسبون هم ذلك إلى أنفسهم حيث إنّه

من المعلوم أنّ مكتشفيها الحقيقيين هم سكان المنطقة الذين أرشدوهم إليها ،هذا إذا كان ثمة اكتشاف على الإطلاق"[2].

وبصدد ذكر هذه النقوش والرسومات الصخرية نشير إلى الكبش الذي يوجد بالقرب من قرية الوديان بنواحي البيض والذي اكتشف كما يعتقد الفرنسيين من قبل الباحث فلا مند flamand وأشار إليه لأوّل مرة للعالم يوم 1899/06/12 في مراسلة لأكاديمية البحوث والفنون الجميلة بباريس.

إنّ رسومات الكبش التي تكثر بالمنطقة ترمز لإله القوة والنماء ويمثل الإله أمون في الديانة المصرية القديمة، وأنّ وجود هذا الإله بالحضارة المغربية القديمة يدلّ على وجود اتصال حضاري ، وتأثير ديني على سكان المغرب من لدن مصر القديمة ، إذ يذكر محفوظ قداش أنّ " الإله الذي عُبِد من طرف كلّ البربر هو بالتأكيد الإله الكبش. فقد ظلّ الكبش إله الشمس راسخا عِدّة قرون وعُثِر على مسلاّت منقوشة وتماثيل صغيرة ذات الكبش الإلهي في كلّ شمال إفريقيا".[3] كما تنتشر في ولاية النعامة والبيض مقبرة الإنسان القديم (التمولوس) بأعداد كبيرة العامة ، وتوجد على أشكال هندسية مختلفة منها الدائرية والبيضاوية، مغطاة بالحجارة التي تم تكديسها فوق القبر من كلّ الجهات، وتبين طريقة الدفن أنّ الإنسان في تلك الفترة كان يعتقد في الحياة بعد الموت، فالميّت كان يدفن في وضع جنيني، ومعه أدواته التي كان يستعملها في حياته اعتقادا منهم إلى حاجة الميت إلى أدواته .هذا يدلّ على الاتصال الحضاري ، وتشابهه مع الحضارة الفرعونية لأنّ الفراعنة القدامى كانت تدفن معهم أدواتهم، وهذا مادلّت عليه الحفريات في الأهرامات، وفي هذا الشأن يشير محمد الطاهر العدواني"... هذا ومعلوم أنّ هناك تشابها كبيرا في مضامين، وأشكال، وتقنيات الرسوم الصخرية، في الصحراء الجزائرية، وبين الرسوم

في جنوب مصر، من جهة أخرى، وبين هذه الرسوم الصخرية في عموم الصحراء الكبرى أي من شواطئ البحر الأحمر إلى شواطئ المحيط الأطلسي"[4] هذا الرأي وجد معارضة من قبل مفكرين آخرين بحيث أكدوا عدم وجود أي اتصال حضاري على اعتبار أنّ حضارة الجنوب الغربي أقدم من الحضارة الفرعونية لكن حسب اعتقادي أنّ التأثير الحضاري ليس مرتبطاً بعامل الزمن، فالحضارة اليونانية نجدها قد سبقت الحضارة الإسلامية في الظهور، إلا أنّ المسلمين استطاعوا أن ينهلوا من اليونان في جميع المجالات لكنهم أبدعوا.

إنّ هذه الرسومات الصخرية لم تلق العناية الكافية ، والبحث الوافي بالرغم من أنّه اكتشف من هذه الرسوم وإلى سنة 1980، ما يزيد عن 30000 مشهد ورسم تبيّن من خلالها ماضي الأقوام، والشعوب التي تعاقبت على الصحراء الكبرى، ويوميات أصحابها فهي سجل تاريخي عريق يقول كارل شتر بيتر:" لو كانت هذه الرسوم الصخرية جمعت، وصنفت حسب أساليب الرسم فيها ثم قسمت إلى مجموعات . فلعلّها ستكون أوّل كتاب مصور للتاريخ."[5]

وما يمكن الإشارة إليه أنّه توجد بمنطقة الجنوب الغربي الجزائري حروف لكتابة اتفق على تسميتها بالحروف الليبية، فهي حروف بربرية عرفها سكان إفريقيا الشمالية وهي اللغة التي تفرعت عنها البربرية المنطوق بها في الجزائر. إنّ اللغة الليبية حدد العلماء حروفها بإثنين وعشرين 22 حرفا، وفي هذا الصدد يقولCHARLE ANDRE JULIEN :" عرف البربر كتابة لايزال أصلها غامضا أحصيت منها إلى الآن 1125 إشارة . البعض منها يشبه إشارات الكتابة الحالية للتوارق.أما lote فلاحظ أنّ الحروف الليبية البربرية للجنوب الغربي مختلفة جدا عن التيفيناغ الحالي

وليست مفهومة لا من طرف الطوارق ولا من قِبَلِ دارسي لغة البربر".[6] إلاّ أنّ بعض الدراسات أشارت إلى أنّ اللغة الأمازيغية التي يتكلّمها سكان قصور الجنوب الغربي هي اللغة الليبية، إذ يؤكد محفوظ قداش" كثيرة هي النقوش الليبية التي تقدم لنا معلومات عن اللغة القديمة التي كان يتكلمها أسلافنا، من هذه اللغة تفرعت البربرية المنطوق بها في جبالنا بالقبائل والأوراس و لدى التو ارق.حروف التيفيناغ التوارقية متفرعة كذلك عن الحروف الليبية"[7].

هذا يدلّ على تشابه بعض المناطق في الحروف الليبية، واللغة المنطوقة.

إذ وتوجد في منطقة الجنوب الغربي الإشارات الليبية البربرية مرسومة على جداريات، فهي موجودة في مغرار التحتاني، منطقة الشلالة تازينة عسلة بوسمغون، ناحية اربوات. هذه المناطق إلى حد اليوم منها مازال محافظا على اللهجات الشفوية، والمتوارثة من جيل لآخر.

إنّ الحضارة التي ميزت منطقة الجنوب الوهراني هي الحضارة القفصية الوهرانية التي انتشرت انتشارا واسعا وصلت فيه إلى الصحراء الكبرى، وإلى معظم مناطق شرق إفريقيا، وغربها. يذكر CHARLE ANDRE JULIEN أنّ الأفارقة تركوا "ما قبل التاريخ رسومات صخرية كثيرة، والتي يسميها الأهالي بالحجرة المكتوبة ، توجد في عدّة مناطق من إفريقيا الشمالية ، كانت منذ أربعين سنة هدف أبحاث فلامند flamand ، وهي تعود إلى العصر الحجري الحديث من نوع قفصي وهراني، لا يتجاوز عمرها الألف الثالثة قبل الميلاد."[8] من هنا يتبيّن أنّ ظاهرة الرسومات الصخرية في منطقة الأطلس الصحراوي تمتد إلى غاية المغرب الأقصى، ومصر مما ينمّ عن وجود حضارة واحدة، وهذا يتفق أيضا مع الرسومات الصخرية في منطقة القصور.

إنّ الآثار الموجودة بالمنطقة تؤكد بأنّها بربرية تعود إلى العصر الحجري الحديث، ذلك أنّ هناك اكتشافات العظام، والأدوات ، والأسلحة تدلّ على أنّ هذه القصور ضاربة بجذورها في عمق التاريخ، كما تبرز أصلها البربري. يقول رشيد الناضوري:"... وهناك ناحية أخرى هامة، وهي أنّ العنصر البشري المغربي القديم الذي واجهه الرحّالة والكتّاب الأوائل، الفينيقيون واليونانيون كان البربر وأنّ العناصر المسماة بالبربر تمتد في تحركاتها عبر الصحراء الكبرى من الشرق إلى الغرب ويغلب عليها الانتماء إلى عائلة اللغات الحامية المختلطة أحيانا بعائلة اللغات السامية ...وكانوا لا يزالون في ذلك الوقت في مرحلة العصر الحجري الحديث ، وذلك لأنّ المغرب الداخلي الصحراوي ، والجبلي كانت لا تزال تسكنه قبائل البربر."[9] لكن إذا تأكد أنّ سكان القصور من أصول بربرية، فأي عنّصر بربري ينحدر منه سكان هذه القصور ونحن نعرف أنّ هناك طوائف وأصنافا في البربر، منهم البدو، والحضر، البتر، والبرانس؟

إنّ البربر الذين كانوا يقطنون منطقة القصور يرجع أصلهم إلى البربر الجيتول ، وهي تسمية أطلقها الرومان على القبائل الساكنة في الصحراء ، فهي قبائل ضاربة فيما بين المحيط الأطلسي غربا حتى فزان شرقا، فهي متعددة الأصول جمعها إطار جغرافي متجانس نسبيا يتمثل في السهول، والمرتفعات الجنوبية، وحوافي الصحراء أي الإقليم الواقع بين التل، والصحراء، المتميز بالاقتصاد الرعوي، ومن ثمة اشتهر الجيتوليون في تاريخ المغرب القديم بأنهم رعاة نموذجيون، وهذا ما يؤكده الكاتب الفرنسي الأصل، والذي اهتم بدراسة المنطقة التي عاش فيها وقتا طويلا إنه الكاتب فرونسوا كومينارديcominardi François إذ يقول:" إنّ أصل القصور يعود إلى فجر التاريخ .إنّ البربر الجيتول قد اختاروا حياة البداوة،

والرعي في الهضاب العليا ، وتضاريس الصحراء، والأطلس الصحراوي، والبعض الآخر حياة الزراعة في بعض مواقع الأطلس الصحراوي، إذ استفادوا من ينابيعها المائية، وتربتها الخصبة السوداء التي تكونت في عصر البلاستيوس ...إنّ القصور الأولى تعود إلى القرن الثاني، وبداية القرن الأول قبل الميلاد لقد تكونت على أساس التوسع المتنامي في الأطلس الصحراوي في إطار سياسة الاستيطان للبدو البربر القادمين من شمال المغرب منذ عهد ماسينيسا."[10]

إنّ الجيتوليين امتازوا بالحياة الجبلية بسلسلة الأطلس الصحراوي الموازي لسلسلة الأطلس التلّي كما يشير إلى ذلك استرابون الذي أورد أنّ الجيتوليين كانوا أقوى الأمم الليبية على الإطلاق، إنّ بلاد الجيتول ممتدة عبر خارطة جغرافية تبدأ من المحيط الأطلسي إلى فزان، كما أشرنا سابقا وهذه الخريطة تمثل إقليما انتقاليا مابين الصحراء الكبرى، وشريط التل الساحل و أما من الناحية السياسية، كان الجيتول يمثلون شريحة سكانية مندمجة مع الشمال نسبيا. من الناحية الإدارية فهم موريون في الناحية الغربية الجنوبية، ونوميديون في السهوب، والمرتفعات الجنوبية الجزائرية، والتونسية يرى محفوظ قداش"...يخبرنا استرابون أنّ أراضي المور كانت تتبع أراضي الماصيصيل ، التي تبدأ من نهر مولوشة، وتنتهي عند رأس تريتون، فالنهر يمكن أن يكون نهر ملوية أما الرأس، فهو رأس بوقرعون."[11]

إذن إنّ الأصل البربري الذي كان يجوب منطقة القصور هو الجيتول في العصر الحجري الحديث، لكن هناك من يرى أنّ الجيتول أصل صنهاجة، وزناتة. يقول ابن خلدون :" وكانت مواطن هذا الجيل من لدن جهات طرابلس إلى جبل أوراس و الزاب وقبلة تلمسان ثم إلى وادي ملوية

."قال:"والأكثر منهم بالمغرب الأوسط حتى إنهم ينسب إليهم و يعرف بهم، فيقال وطن زناتة."[12]

من هنا يتبين أن أصل السكان بالجنوب الغربي بربر زناتة ، وإن كان البعض ينفي البربرية على الزناتيين إذ "..لم يعثر عل[1]ى اسم زناتة مع أسماء القبائل الأمازيغية التي وجدت في كتب المؤرخين القدماء من يونان ورومان، لكن عثر على كتابة في منطقة الشلف."[13]

لكن كل الشواهد بالمنطقة تدلّ على الأصل البربري الزناتي إذ يذكر CHARLE ANDRE JULIEN " أنّ أول تصنيف للقبائل البربرية يعود إلى ابن خلدون الذي سجل ثلاث مجموعات حسب التوزيع الجغرافي وذلك في منتصف القرن 14م ، بحيث يتمركز البرانس في الغرب ، وتعرف هذه المجموعة فرعين فرع مصمودة الذي يستقر بالمغرب الأقصى ، وصنهاجة التي تنقسم إلى قسم متحضر وهو كتامة بمنطقة القبائل، وغومارة بمنطقة الرّيف، أما القبائل الأخرى بدو كبار بصحراء المغرب الإسلامي وهي لمتونة، وغزولة وزناتة التي كانت تنتشر عبر كامل الهضاب العليا من طرابلس إلى جبال العمور."[14]

من هنا يتضح أنّ الفرع البربري الذي كان يجوب الجنوب الغربي في منطقة القصور هو زناتة ذلك أنّ منطقة بجبال القصور ينطبق عليها تصنيف ابن خلدون وهنا يشير مبارك بن محمد الميلي "زناتة أشبه البربر حياة بالعرب لأنّ أكثرهم مواطنهم الصحراء يتخذون بيوت الشعر للظعن."[15]

إنّ من القبائل الزناتية من يغلب عليها الطابع البدوي الترحالي والأخرى يغلب عليها طابع الاستقرار، ومن شروطه وجود ينابيع مائية وهذا الطابع الأخير يتوافق مع سكان قصور الجنوب الغربي الجزائري نظرا لوجود

عامل الاستقرار إذ شهدت بناء عدة قصور، بالإضافة إلى العامل الآخر الذي يساهم في الاستقرار، وهو توفرها على عدّة منابع مائية موجودة ليومنا هذا ، ويشير بعض المؤرخين أنّ الزناتيين قدموا من سجلماسة بعد سقوط دولتهم مما دفع بهم إلى النزوح إلى الصحراء ليستقروا فيها، نظرا للمعاناة التي لقوها فكان عليهم التجمع من أجل المحافظة على وجودهم وكيانهم . يرى الباحث مقدم مبروك"..وقد تمكنوا من خط بعض القصور، والفقاقير في الأماكن التي لا زالت بها لغتهم التي لم تندثر."[16]

إذن نرى أنّ الزناتيين فرّوا إلى الصحراء بحثاً عن الأمن، أو هروباً لعدم رضاهم عن الأوضاع السياسية وفي هذا الصدد يقول فرج محمود فرج: " فعند منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، وبعد قيام دولة الموحدين، وما نتج عن ذلك من تعقب الموحدين للفرع الزناتي من القبائل البربرية، دفع بأعداد كثيرة إلى الهجرة إلى الصحراء ."[17] وعلى كل، إن كان الجيتول قد سكنوا الجبال والكهوف، والمغارات فإنّ أحفادهم الزناتيين هم أوّل مَنْ أسّسوا القصور الصحراوية، وأضفوا عليها الصبغة الهندسية والمعمارية، ولكن بعد مجيء الإسلام وهجرة القبائل العربية التي حلّت بالمنطقة جاءت محمّلة بالثقافة العربية والإسلامية وأضافت الكثير إلى الثقافة البربرية.

الإحالات والهوامش:

1 –FELIX JACQUOT, expédition du général cavignac dans le Sahara algérien , avril et mai, (paris 1847),p.23.

[2]–محمد العدواني ،الجزائر في التاريخ منذ نشأة الحضارة (ج1 الجزائر :المؤسسة الوطنية للكتاب الطاهر ، ،1984)،ص246

[3]–محفوظ قداش ،الجزائر في العصور القديمة ، ترجمة صالح عباد،الجزائر:المؤسسة الوطنية للكتاب،1993،ص33.

[4]–محمد الطاهر، العدواني، **المرجع السابق، ص214**

[5]–المرجع نفسه ، ص**215**.

[6] –خليفة بن عمارة، لمحة تاريخية عن الجنوب الجزائري الأعلى من الأصول إلى ظهور الإسلام(5000ق م.إلى القرن الثامن)، ترجمة بوداود عمير ،مكتبة جودي عامر ،وهران، بدون تاريخ ،ص26.

[7] –محفوظ، قداش،مرجع سبق ذكره،ص32.

[8]–CHARLE ANDRE JULIEN,histoire de lafrique du nord des origines a la conquete arabe.2eme edition–snede–1980–p–24.

[9]–رشيد الناضوري ، المغرب الكبير ، العصور القديمة أسسها التاريخية ، الحضارية،والسياسية،ج1، دار النهضة العربية ، بيروت،1981،صص137–235.

[10] –FRANCOIS,COMINARDI,**Op.cit , p 45**.

[11]–محفوظ قداش،مرجع سبق ذكره،ص63.

[12] –مبارك بن محمد الميلي ،تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم وتصحيح محمد الميلي ج1 ، المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر ،1989 ،ص108.

[13] – قوراري عيسى ،قصر تيوت دراسة أثرية ومعمارية ، مخطوط رسالة ماجستير تلمسان ،2001 ص15.

[14]–CHARLE ANDRE JULIEN,l'histoire de l'Afrique blanche,Que sais–je ?,édit,p.u.f 1967,p,18.

[15]–مبارك بن محمد الميلي ، مرجع سبق ذكره، ص209.

[16] –مقدم مبروك، الاستيطان والتوطين بإقليم توات ،قورارة ،تديكلت ،دار الغرب للطباعة والنشر ،وهران 2003،ص18.

[17] –فرج محمود فرج ، إقليم توات خلال القرن 18و19م،د،و،ج، الجزائر 1977، ص05.